مفهوم السياق وأثره
في تفسير "نكت القرآن الدالة على البيان"
لمحمد بن علي الكرجي القصاب (ت360هـ)

الطالبة الباحثة: للامريم بوزكراوي علوي

جامعة محمد الخامس بالرباط – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تكوين الدكتوراه: الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر في العالم المتوسطي

مختبر البحث: دراسات في قضايا العلوم والمجتمع

المغرب

مقدمة:

الحمد لله الذي ختم الرسالات برسالة الإسلام، وأنعم على عباده بالآلاء وكامل الإنعام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنام.

أما بعد، فإن خير ما صرفت فيه الأعمار، وملئت به الأسفار، وأقبل عليه كل لبيب، وسعى في سبيل فهمه كل أريب، كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي لو كان البحر مدادا له لنفد البحر ولم تنفد كلماته، جمعه القرآن كتاب الله جل وعلا، كتاب أنزله الله تعالى على عبده ليكون للعالمين نذيرا، كتاب فيه خبر من قبلنا، ونبأ ما بعدنا، لا تنقضي عجائبه، ولا حد ولا حصر لهداياته ودلائله، حملت حروفه وكلماته وسوره دلائل إعجازه، ودل على عظيم قيمته تناسق كلماته، وترابط جمله، وحسن بنائه وتناغم سياقاته، يقول عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم: إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا؛ فإذا هي –لو تدبرت– بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا.

ولماذا نقول :إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البينان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعضاء؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية[1]

تشبيه دقيق هذا الذي وصف به دراز الوحدة الموضوعية التي تسم البناء القرآني، فهو قوام واحد مرتبط بوشائج يلتحم بعضها ببعض، ويشكل كل حرف فيها رابطا يربط بين مكونات هذه الفسيفساء الربانية العجيبة، التي كلما نظر المرء فيها هاله حسن بنائها، وجمال هندستها، واستطاع من وفقه الله جل وعلا، أن يستقى من معينها علما، وفكرا، وذكرا، وجمالا، وبدا له تجليات قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَداً

[1] – النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم ص188 المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: 1377هـ) الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ- 2005م عدد الصفحات: 290

﴿١٠٤﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوَ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾[3]

إن ما يتميز به القرآن من ترابط وثيق بين حروفه، وكلماته، وآياته وسوره يجعل لزاما على كل من أراد أن يلج باب تفسيره، أن يتزود بعدد من العلوم تكون له منارات تهدي سيره، وضوابط تحفظه من الزيغ وصرف الكلام عن معناه، ومعرفة ما يشكله هذا الصرف من خطر على فهم الناس لمعاني الآيات، الذي شهد التاريخ كونه سببا في كوارث فكرية و إنسانية، منها تكفير بعض أهل الملة، وإزهاق أرواح عديدة بسبب بتر الآيات من سياقها العام، وإعطائها تفسيرا لا علاقة له بمراد الله تعالى، وهو الأمر الذي حدث مع بعض الفرق الكلامية التي حرفت الكلم عن مواضعه، وشتتت أمر المسلمين، وفرقت دينهم، وكان نتيجة لذلك ضياع جهد الأمة في الرد، و في جبر ما انكسر من فكر الأمة ولحمتها، وتصحيح ما فسد من عقيدتها.

ومن ألطاف الله تعالى بهذه الأمة، أن وجه اهتمام عدد كبير من العلماء، منذ زمن بعيد، إلى العناية بالألفاظ والمعاني، والحرص على فهم ما تتميز به من اتصال بعضها ببعض، وتوظيف ذلك الاتصال في استيعاب وتدبر كلام الله جلت قدرته، و ذلك لأن اللفظ يحمل المعنى، ويمثل راحلته التي تنقله من صوت ملفوظ إلى معنى مراد، يفصح المتكلم به عما يسمعه المتلقي، ثم إن اللفظ في ارتباطه بالمعنى ينظم عملية الإخبار، ويبين ضرورة انضباط المتكلم أو حامل الكلام، أو شارحه لسياق ما هو بصدد التعبير عنه، قال ابن جني: العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدرا في نفوسها."[4]، ولهذا كان لزاما على المفسر معرفة أهمية السياق، وضرورة الانضباط له كأصل موجه لبيان كلام الله جلت قدرته. حتى لا يكون سببا في فتح أبواب الضلال، وذلك لأن كل مقال ينضبط بسياق أو سياقات تتطلب من اللبيب عدم الإغفال، و"مراعاة المقال لمقتضى الحال" وفقه أن "لكل مقام مقال".

فما هو السياق؟ وكيف عرفه القصاب؟ وهل هو حجة؟ وما هي أقسامه؟ وما هو أثره في تفسير نكت القرآن؟

قبل الحديث عن تعريف السياق عند القصاب وما يتعلق به، سأعرض ترجمة مختصرة للكاتب، وللكتاب موضوع البحث.

1. التعريف بصاحب التفسير:

اسمه:

"هو محمد بن علي بن محمد الحافظ أبو أحمد الكوفي القصاب لقب بذلك لكثرة ما قتل من الكفار في الجهاد وكان شجاعا"[5]

مولده ونشأته:

لم أقف في كتب التراجم التي اطلعت عليها، على ذكر شيء عن تاريخ ولادة محمد ابن علي الكرجي القصاب، لكن محقق الكتاب موضع البحث استنبط ولادته قال: "بالنظر إلى وفاة شيخه جعفر بن أحمد بن فارس والذي توفي سنة تسع وثمانين ومائتين، وشيخه عبد الله بن الصباح الأصبهاني والذي توفي سنة أربع وتسعين ومائتين، يتبين أنه كان موجودا بعد الثمانين ومائتين."[6]

---

[2] – الكهف: 104

[3] – لقمان: 26

[4] – الخصائص ج1 ص216

[5] – نزهة الالباب في الألقاب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) المحقق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري الناشر: مكتبة الرشد – الرياض الطبعة: الأولى، 1409هـ-1989م عدد الأجزاء: 2، ج 2 ص92.

[6] – نكت القرآن الدالة على البيان تحقيق التويجري ج1 ص 23.

– عقيدته:

تميزت عقيدة الامام القصاب رحمه الله بكونها نابعة مما كان عليه السلف في العقيدة، فهو "سلفي المعتقد يدور مدار الدليل من القرآن والسنة ويقول بما يقول به الصحابة والتابعون لهم بإحسان "[7] والمتصفح لكتابه يجد ذلك بوضوح في رده على الفرق الكلامية من معتزلة ورافضة ومرجئة..

– مذهبه الفقهي ومكانته العلمية:

أورد كل من ترجم للإمام القصاب، اهتمامه الشديد بالحديث النبوي، حيث ذكر غير ما مرة كونه من الحفاظ، الأمر الذي كان له أثر في اختياره الفقهي، وهو ما جعله يلتزم في مذهبه الفقهي مذهب المحدثين، كما أنه لم يكن مقلدا، ولا متبعا لمذهب من المذاهب الفقهية المعروفة، لكنه كما قال محقق الجزء الأول: "وإن كان الناظر في كتابه هذا يتبين أن له معرفة بأقوال الشافعي من بين الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد".[8]

كما قال: "جمع بين الفقه والحديث مع المعرفة باللغة والقراءات والناسخ والمنسوخ ومذاهب الناس. وقد علا شأنه في الفقه حتى وصفه بذلك وأثنى عليه فيه عدد من العلماء، وممن وصفه بذلك أبو الحسن الكرجي والسمعاني"[9].

2. : التعريف بنكت القرآن: موضوعه وحجمه.

يعتبر كتاب نكت القرآن الدالة على البيان" من أقدم التفاسير، وذلك استنباطا من زمن وفاة صاحبه(360هـ)، غير أنه بقي مغمورا في المكتبات ردحا من الزمن، حتى كتب الله له الظهور على يد جلة من طلبة العلم، فحققوه، وأزالوا عنه غبار الإهمال، وكان ذلك سنة 2003م.

وأما صحة نسبته إلى محمد بن علي القصاب فقد صرح بذلك بنفسه في المقدمة، قال: " هذا كتاب نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، والمنبية عن اختلاف الأنام"[10]، كما وردت نسبته إليه أيضا عن ابن تيمية، في كتاب بيان تلبيس الجهمية قوله: «وكذلك تأويل الشيخ أبي أحمد محمد بن علي الفقيه الكرجي الإمام المعروف بالقصاب، للآيات والأخبار الواردة، في إحساس الميت بالعذاب، وإطنابه في كتابه المعروف بنكت القرآن..."[11]

يقع كتاب نكت القرآن في أربع مجلدات سأعرضها مرتبة:

1-الجزء الأول: حققه الدكتور: علي بن غازي التويجري وجعله في مجلد. وجمع فيه تفسير السور (سورة الفاتحة – سورة الرعد)

2-3 الجزء الثاني والثالث، وحققه الدكتور إبراهيم بن منصور الجنيدي (سورة إبراهيم – سورة ص) في مجلدين.

4- الجزء الرابع، وحققه د. شايع بن عبده الأسمري (سورة الزمر – سورة الناس) في مجلد رابع.

قيمته العلمية

تتجلى قيمة الكتاب العلمية في كونه مصنفا قديما، تناول فيه صاحبه بيانا لكلام الله عز وجل، وضمنه علوما وفنونا شتى، فهو كتاب مليء بالنفائس، والدرر، والفوائد، والأحكام المتنوعة في مختلف العلوم، تناولها المؤلف بمنهج رصين ناقش فيه الفقهاء والأصوليين واللغويين،

---

[7]- نكت القرآن مرجع سابق ج 1 ص 43

[8]- نكت القرآن ج 1 ص 44

[9]- نكت القرآن ج 1ص 38

[10]- مقدمة كتاب نكت القرآن الجزء1 ص 77

[11] – بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الطبعة: الأولى، 1426هـ عدد الأجزاء: 10 ج 3 ص 112

واستنبط بواسطته استنباطات، تنم عن فهم عميق لأصول الدين، ولأحكام الشريعة، وقواعد اللغة.. متبعا في كل ذلك طريق السلف في تعظيم النص القرآني والاستدلال به على قواعد الشرع العقدية، والفقهية وغيرها.

إن كتاب نكت القرآن ليعد بحق مفخرة لمؤلفه، ومصدرا لمجموع علوم، وفنون يجد فيه طالب العلم بغيته، والمدافع عن عقيدة السلف عدته، والراغب في المناظرة، المنهج الرصين، والاستنباط الحكيم.

تلك كانت نبذة مختصرة، شملت التعريف بالإمام القصاب، وكتابه نكت القرآن. وما يأتي بعدها إن شاء الله هو تعريف السياق، ثم إيراد ما جاء في كتاب نكت القرآن مما له علاقة بموضوع المقال: " مفهوم السياق وأثره

في تفسير "نكت القرآن الدالة على البيان" لمحمد بن علي الكرجي القصاب (ت360هـ)"

3. السياق في نكت القرءان:

مفهوم السياق:

وردت كلمة "سياق" في القرآن الكريم باشتقاقات مختلفة في سبع عشرة موضعا، منها: قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[12]، وقوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾[13]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[14]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾[15]، وفي قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾[16]، وقوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴿٤٤﴾﴾[17]، وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾[18]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ ﴿٢٧﴾﴾[19]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٨﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٢٩﴾﴾[20].

---

[12] – الزمر: 70

[13] – ق: 21

[14] – مريم: 87

[15] – الفرقان: 7

[16] – القلم: 42

[17] – النمل: 45

[18] – ص: 32

[19] – السجدة: 27

[20] – القيامة: 28-29

وهكذا نجد أن جذر الكلمة قد ورد في عدة مواضع من كتاب الله تعالى، وأما معناه اللغوي فإنه ورد في المعاجم اللغوية بمعان منها ما جاء في الصحاح للجوهري [21] قال: (ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية)[22].

وجاء في معجم مقاييس اللغة: (السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقا، والسيقة ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته، والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها»[23]

وقد وقف محمد حسن جبل على معاني اشتقاقات الجذر اللغوي " س وق"، فقال: المعنى المحوري: الدفع إلى الأمام أو إلى أعلى بقوة"[24]

من خلال ما ورد في تعريف الجذر اللغوي الذي اشتقت منه كلمة السياق يظهر أنه يحمل معاني التتابع، والاتصال، والدفع.

بعد أن وقفت على بعض ما جاء في تعريف السياق من خارج مؤلف نكت القرآن، الذي هو موضوع البحث، سأعرض ما تم استخلاصه منه فيما يتعلق بتعريف" السياق" وحضوره في العملية التفسيرية عند القصاب.

خلال استقرائي لكتاب نكت القرآن، وقفت على ورود كلمة "سياق" في معرض تفسير القصاب لآيات الكتاب العزيز، وذلك في عدة مواضع منها قوله:" ليس إتيانه الذي ساق إليه التمرة، ولكن ساقها إليه ما سبق له من تقدير ربه"[25]

بمعنى أن الذي دفع، ووصّل إليه رزقه، قدر ربه، لا جهده الذاتي. فيكون السوق هنا هو الدفع والإيصال.

وفي موضع آخر قال:" ثم ساق الكلام فجعل في تمام عقوبتهم ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[26]"[27] وقال:" ثم ساق جل جلاله تمام القصة"[28]

في هذه المواضع السابق ذكرها، أشار القصاب بكلمة "ساق" إلى معنى أتبع، ووصل الكلام. ومنه يمكن أن نقول: إن معنى السياق لغة عند القصاب هو نفسه ما جاء في معاجم اللغة، من معاني الدفع، والتتابع ووصل الكلام. وتجدر الإشارة إلى أنه ذكر مرادفات لكلمة "سياق" في ثنايا كتابه منها قوله: "ليكون الكلام منسقا" [29] وقوله: "ثم نسق في هذه الآية عملا بعد عمل"[30]

---

[21]– الجوهري: هو إسماعيل بن حماد صاحب الصحاح، كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة، وكان إماما في اللغة والأدب. توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقيل في حدود الأربعمائة. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (1 / 447)، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: المكتبة العصرية، لبنان، بدون تاريخ.

[22] – الصحاح للجوهري (4 / 1499)، ط: دار العلم للملايين، ط: الرابعة 1407هـ – 1987م

[23]– معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (سوق)، ط: دار الفكر 1399 هـ – 1979 م.

24– المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، باب السين والقاف وما يثلثهما، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها) المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، 2010 م.

25 – نكت القرآن ج4ص414

[26] – المطففين:15

[27] – نكت القرآن ج1ص439

[28] – نكت القرآن ج1ص306

[29] – نكت القرآن ج1ص 83

[30] – نكت القرآن ج1ص461

عبر القصاب عن معنى السياق بكلمة نسق التي قال عنها ابن فارس: "النون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء .وكلام نسق :جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض... وخرز نسق :منظم"[31]

كل ما سبق ذكره يمكن جمعه، واعتباره تعريفا لغويا للسياق عند القصاب، وعليه أقول إن المعنى اللغوي للسياق عنده هو: تتابع الكلام، ونسقه، وترتيبه، ونظمه، وربط بعضه ببعض.

لم يرد في كلام القصاب شرح لغوي صريح للفظ "سياق"، لكنه أشار إلى معناه في مواضع مختلفة من كتابه، منها، إضافة لما سبق ذكره، قوله: " قوله إخبارا عنها: ﴿فَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾[32] حجة في أشياء فمنها :ما دل آخر الكلام على أوله من أن النسوة كلهن اشتركن في مراودة يوسف وإن كان الخطاب في أول الكلام من امرأة العزيز بالوعيد له إن عصى أمرها"[33]،وقال في موضع آخر: فإذا فليت بقراءة ما قبلها وما بعدها"[34] وقال في موضع آخر: وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[35]، حجة على المعتزلة واضحة، إذ قد جمع بين الإضلال والهدى منه ولزوم الحجة للمضلين أو المهدين في آية واحدة، متصلة المعاني بعضها ببعض، لا يقدرون أن ينفصلوا منها بدعاويهم الباطلة"[36]

لقد عبر القصاب عن السياق بكونه" ما دل آخر الكلام على أوله" وبأنه ربط المعنى بما قبله وما بعده، وبأنه اتصال المعاني بعضها ببعض. إذا جمعنا ما ذكره القصاب في معرض إشارته للسياق، يمكن أن نقول إنه اتصال المعاني بعضها ببعض، وترتيب الكلام مع مراعاة ما قبله وما بعده. إن هذا التعريف المستنبط من ثنايا كتاب "نكت القرآن"، يقودنا إلى القول بأن المعنى الاصطلاحي لكلمة "سياق" عند القصاب متوافق مع المعنى اللغوي. وتجدر الإشارة إلى أن القصاب قد نبه إلى أمر دقيق، يتحتم عدم إغفاله عند إعمال السياق، وهو ما يتميز به لسان العرب من سعة، فقال: وبلية القوم إضاعة النصح لدين الله، واتخاذ كل ما احتمله ظاهر الكلام دينا، ولا يحفلون بتناقضه عليهم، ولا يعرفون مع ذلك سعة لسان العرب وتصاريف الكلام وتعارضه"[37]

وقال:" وكل هذا دليل على سعة اللسان، فمن زاحم في لسانها قبل أن يعرف هذا من كلامها – وسائر ما ذكرناه من لطيف إشارتها – ركب خطة عظيمة. وأخاف أن يخوض النار خوضا، وهو لا يعلم."[38]

---

[31] – مقاييس اللغة باب النون والسين وما يثلثهما مادة نسق ص420، مرجع سابق

[32] – يوسف: 32 -33- -34

[33] – نكت القرآن ج1ص615

[34] – نكت القرآن ج1ص494

[35] – التوبة: 116

[36] – نكت القرآن ج1ص578

[37] – نكت القرآن ج1 ص 83

[38] – نكت القرآن ج4ص381

وقال:" ذلك مخالفة القرآن وهدم اللغة والخروج من العرف والعادة،"[39]

خلاصة لكل ما سبق ذكره، يمكن أن نقول إن السياق اصطلاحا هو: تتابع المعاني، واتصالها، ونظمها في النسق القرآني للوصول بذلك إلى بيان المعنى المراد.

حجية السياق:

إن حجية السياق في تفسير القرآن، يمكن أن تستخلص ابتداء من كون السياق هو تفسير للقرآن بالقرآن، الذي قال عنه القصاب:" قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[40] حجة لمن يجعل القرآن نصب حججه في أحكام إسلامه، وشرائع دينه وانتزاعاته في جميع علومه، فمن تدبر آياته أدته إلى حقائق الأحكام"[41]

وقال:" والقرآن يشهد لنا بذلك في غير موضع"[42]

يستفاد مما ما قاله القصاب أنه يعتبر القرآن حجة في تفسير أحكام الإسلام، وفي جميع علومه.

ثم إن هذا القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولم يحد عن الأساليب التي يستعملها العرب في كلامهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[43] وقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾[44] [" وقال أيضا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[45]

وقد وعى القصاب هذا الأمر، وتحدث عنه في عدة مواضع منها قوله: فإن العرب لا تعد الخلف إلا ترك إنجاز الوعد في الخير، فأما ترك إنجاز الإيعاد فهو عندها كرم وتفضل لا خلف ولا كذب، والقرآن نازل بلغتها"[46]

إن نزول القرآن عربياً جارياً على أساليب العرب، وبلاغتهم و معهود كلامهم، هو ما جعل العلماء يحتجون به في تفسيرهم لكلام الله تعالى،قال الشافعي:" فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا، يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

- وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله.

---

[39] - نكت القرآن ج1ص201

[40] - سورة ص: 28

[41] - نكت القرآن ج1ص132

[42] - نكت القرآن ج1ص 132

[43] - طه: 110

[44] - فصلت: 2

[45] - الشعراء: 195

[46] - نكت القرآن ج1ص554

–وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها.

–وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة.

–هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به وإن اختلفت أسباب معرفتها معرفة واضحة عندها ومستنكرا عند غيرها ممن جهل هذا من لسانها وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة فتكلف القول في علمها تكلف ما يجهل بعضه" [47]

وغير بعيد عن قول الشافعي ما ذكره القصاب قال:" قال محمد بن علي :وبلية القوم إضاعة النصح لدين الله، واتخاذ كل ما احتمله ظاهر الكلام دينا، ولا يحفلون بتناقضه عليهم، ولا يعرفون مع ذلك سعة لسان العرب وتصاريف الكلام وتعارضه، إذ في الكلام ما يحتمل وجوها مستعملة كلها، وفيه ما يحتمل وجهين لا يجوز استعمال أحدهما، وفيه ما لا يجوز استعمال ظاهره بتة وفي التعارض ما يتوجه اختلافه، وفيه ما لا يتوجه إلا بنسخ"[48]

وقد أجمل الشاطبي رحمة الله عليه ما فصله الشافعي، وما ذكره القصاب، فقال عند حديثه عن أمية الشريعة:" إذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أمية لم تخرج عما ألفته العرب" [49] وقال:" لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة"[50]

وهكذا فإن نزول القرآن بالعربية، وعلى معهود كلام العرب، يجعل اعتماد السياق في تفسير كلام الله حجة، ويعضد ذلك ما جاء في كتاب الله عزوجل من ذم لمن يحرف الكلم عن مواضعه قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[51]

وهو الأمر الذي نبه على خطورته عمر بن الخطاب، ففي الأثر الذي رواه أحمد قال:" حدثنا عبد الله، حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشد، حدثني يونس، عن ابن شهاب، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن هذا القرآن كلام الله عز وجل، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم[52]".

أهمية السياق في التفسير:

يعتبر السياق أساسا مهما من أسس توجيه الفهم عن الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، بل إنه ضابط رئيس من ضوابط استعمال البشر في تخاطبهم، وتواصلهم، وهو هبة ربانية ميز الله بها الإنسان، قال تعالى:" علمه البيان"، ولهذا نرى الانسان أثناء كلامه يستعمل الكلمات والجمل التي من شأنها أن تكون متساوقة، أي تسير بتناغم يجمعه، وتؤدي بفضله إلى إفادة معنى يفهم من خلال سياق لفظي أو مقامي، وقد لا أجانب الصواب إن قلت إن مسألة مراعاة السياق في الكلام، و فهمه من سياقه ليست مقصورة على لسان بعينه، بل هي

---

[47] – الرسالة ص53–52–51 المؤلف: محمد بن إدريس الشافعي (150 هـ – 204 هـ) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، عن أصل بخط الربيع بن سليمان كتبه في حياة الشافعي) الطبعة: الأولى، 1357 هـ – 1938 م الناشر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر

[48] – نكت القرآن ج 1ص394

[49] – الموافقات ج2ص126

[50] – الموافقات الجزء 2ص 131–129

[51] – المائدة: 14

(52) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص46 كتاب الزهد المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ) وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 1999 م عدد الأجزاء: 1

ركيزة من ركائز كلام العقلاء. قال الجرجاني: "فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في" : من الطويل قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل " منزل قفا ذكرى من نبك حبيب، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل"[53]

ومما لا شك فيه أن الاهتمام بالبحث السياقي ليس من مبتكرات عصرنا، كما يروّج بعض من يجهلون[54] تراث العرب العلمي، ومميزات لسانهم، بل هو إرث أصيل وأساس أثيل، وارد في كتب أسلافنا من نحاة وبلاغيين وأصوليين. وتاريخ الإسلام يشهد أن عناية العلماء المسلمين بالسياق لها جذور في معهود كلام العرب، وأن أثره ظهر بشكل جلي مع نزول الوحي، وما صحبه من تدبر واستنباط، حيث كانوا يستحضرونه بقوة في فهمهم، وتفسيرهم لكلام الله تعالى، وكل ذلك اقتداء بسيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي كان معلما للصحابة، يبين لهم المنهج السديد في التعامل مع كتاب الله عزو جل، ومن ذلك ما ورد عن عائشة في سؤالها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦١﴾﴾[55] روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت :سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقلت :أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: "لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات[56]"

وقد أعمله الصحابة في تفسيرهم لآيات من القرآن الكريم، ومن ذلك ما أورده الطبري في تفسير قول الله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٠﴾[57] قال: فلا خلاف بينهم في أن معناه :ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلا، ذكر الخبر عمن قال ذلك: حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن ذر، عن يسيع الحضرمي قال :كنت عند علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال رجل :يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله: وَلَن

---

[53] أسرار البلاغة ص4-5 أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت 471هـ)
قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة

[54]– يدعي بعض غير المطلعين على تراث الأمة أن الاهتمام بالسياق من مبتكرات هذا العصر وأن رائد نظرية السياق هو" فيرث" وهو قول يحتاج إلى تمحيص، إذ يمكن بالرجوع إلى تراث الأمة العلمي أن نجد السياق قرينة مهمة في مختلف العلوم ففي النحو مثلا ذكرت النكرة في سياق النفي، ويعمل بالسياق لمعرفة مرجع الضمير وغير ذلك مما يظهر فيه إعمال السياق.. كما أن أصول الفقه تظهر تمكن علمائنا من فقه السياق، وأما البلاغيون فهم ليسوا أقل شأنا من سابقيهم. وكتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز موردان عجيبان في ذلك.

[55]– سورة المؤمنون آية 61

[56]– كتاب الأحاديث المختارة ج2ص 406 الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما المؤلف : ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت 643 هـ) دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، 1420 هـ - 2000 م عدد الأجزاء: 13

[57]– سورة النساء آية 140

يَّجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾[58] ، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي :ادنه، ادنه! ثم قال":فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا"، يوم القيامة[59].

لقد تبين من خلال كلام الصحابي أنه تحير في معنى الآية، حيث أشكل عليه ما فهمه منها، وبدا له تعارض ما فهمه مع ما يجده في الواقع وفي حقيقة الأمر، فما كان من الإمام علي إلا أن وجهه في الفهم لربط آخر الآية بأولها، واستفيد من حوارهما أن اقتطاع جزء آية من سياقها يؤدي إلى سوء فهم المراد منها. وأن السياق يتبوأ مكانة عليا في تفسير كلام الله تعالى، وبيانه ورفع اللبس عنه، وإزالة ما يتوهم تعارضه، كما أنه يشكل سورا يحصنه من كل ما يمكن أن يكون سببا في سوء فهمه، أو التحايل للانحراف به عن مقصده والمراد منه. قال القصاب:" قال محمد بن علي :من حماقات الرافضة أنهم يتسرعون إلى آيات نازلة في قوم بأعيانهم فيحكمون بها لغيرهم، فتسير فيهم حتى ينشأ عليه طفلهم، ويهرم كبيرهم ويتوارثه الأبناء عن الآباء، فإذا فليت بقراءة ما قبلها وما بعدها عليهم استحيوا من أنفسهم، وقد أهلكوا بها من أهلكوا، فمن ذلك :صرفهم قوله جل وعلا: ﴿۞ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[60] إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما، وزعمهم أنهم نكثوا بيعة علي – رضي الله عنه – فإذا تلي عليهم قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾[61] علموا أنهما لم يهما بإخراج الرسول في حياته من داره، ولا بعد موته من قبره، ولا طعنوا في دين المؤمنين، فأيقنوا عند ذلك أن ما تسرعوا إليه من صرف الآية إليهما ليس كما تسرعوا، وهذا شيء متداول بينهم فاش فيهم، يأخذه أصاغرهم عن أكابرهم، ويتوارثونه توارث الأموال لا يشكون فيه. والآية نازلة – فيما بلغنا – في أبي جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبي سفيان وسهيل بن عمرو وهم كانوا أئمة الكفر الهامين بإخراج الرسول، صلى الله عليه وسلم فقال الله جل وعلا: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[62]

فأخزى أبا جهل وأمية بن خلف وعتبة، ونصر عليهم رسوله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين، وشفى صدورهم بقتلهم يوم بدر، وتاب على أبي سفيان وسهيل"[63].

نبه القصاب في تفسيره للآيات السالفة الذكر إلى أن عدم معرفة سبب النزول، وإغفال السياق يؤديان إلى صرف الآيات عن المراد منها، وجعل ذلك من الحماقات قال " من حماقات الرافضة" .

---

[58]– سورة النساء آية 140

[59] – جامع البيان ج9ص 327جامع البيان عن تأويل آي القرآن المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (224 – 310هـ)
توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة – ص.ب: 7780 الطبعة: بدون تاريخ نشر عدد الأجزاء: 24

[60] – التوبة: 12

[61] – التوبة: 13

[62] – التوبة: 14-15

[63] – نكت القرآن ج1ص497-496-495-494

أقسام السياق القرآني في تفسير نكت القرآن:

إن استقراء كتاب نكت القرآن ليدل بما لا شك فيه أن القصاب قد وعى أهمية السياق، ووظفه في تفسيره في عدة مواضع، وأشار إلى اعتباره قرينة وسياجا يحميان التفسير من الزيغ والضلال، وان إغفال استعماله يؤدي إلى انحرافات في الفهم، قال:" وهذا خروج من كلام العرب، ومحيل جهة الكلام عن جهة الاستقامة"[64]، وقال:" من حماقات الرافضة أنهم يتسرعون إلى آيات نازلة في قوم بأعيانهم فيحكمون بها لغيرهم، فتسير فيهم حتى ينشأ عليه طفلهم، ويهرم كبيرهم ويتوارثه الأبناء عن الآباء، فإذا فليت بقراءة ما قبلها وما بعدها عليهم استحيوا من أنفسهم، وقد أهلكوا بها من أهلكوا"[65]، يمكن أن نستشف من هذا الكلام أهمية السياق عند القصاب، وانتقاده لمن يهمل استعماله، كما يمكن أن نستفيد من كلامه أن السياق ينقسم بالنظر إلى ما يحيط به، وما هو داخل فيه إلى قسمين سياق خارجي: عبر عنه ب"آيات نازلة في قوم بأعيانهم" وسياق داخلي: عبر عنه بقوله:" فليت بقراءة ما قبلها وما بعدها" غير أني في هذا البحث سأعتمد ذكر أمثلة للسياق الداخلي، الذي قسمه عدد من العلماء المهتمين بعلوم القرآن، إلى أربعة أقسام، قال محمد عبد الله دراز:" ولنرتبها على أربع مراتب:

1 –القرآن في قطعة قطعة منه.

2 –القرآن في سورة سورة منه.

3 –القرآن فيما بين بعض السور وبعض.

4 –القرآن في جملته"[66].

وقد استنبط هذا التقسيم مما ورد في كتب التفسير لكنه لم يكن معبرا عنه باللفظ الصريح، ولم يكن مرتبا، بل كان مبثوثا في ثنايا صفحاتها، حيث نجد أن المفسرين تحدثوا عن سياق الآية، وعن سياق المقطع، وعن سياق السورة، وعن سياق القرآن.

و ممن تحدث عن ذاك التقسيم، صاحب كتاب «دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم قال: "السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة، ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السورة كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى أن هناك :سياق آية، وسياق النص، وسياق السورة، والسياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى"[67]

وفيما يلي عرض هذه أمثلة لهذه الأقسام من خلال ما ورد في تفسير نكت القرآن:

سياق القرآن:

يقصد بسياق القرآن المعاني والمقاصد الكبرى التي نزل القرآن بها، من أمثال إفراد الله عز وجل بالعبودية، وهداية الناس إلى ما فيه صلاح حالهم في العاجل والآجل، إلى جانب مفاهيم تذكر في عدة مواضع في القرآن يكون بعضها متصلا ببعض، قال القصاب: وهذه أيضا حجة على الشراة، لأنها في القرآن، ومثل هذا كثير في القرآن[68].

ومن أمثلة سياق القرآن التي اخترت إيرادها مما جاء في كتاب النكت الدالة على البيان ما يلي:

---

[64] – نكت القرآن ج1ص97

[65] – نكت القرآن ج 1ص494

[66] – النبأ العظيم ص142 مرجع سابق

[67] – دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ص88 المؤلف عبد الوهاب رشيد أبو صفية الناشر دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الأولى2012

[68] – نكت القرآن ج1ص485

يقول تبارك وتعالى في الكفار: ﴿فُل لِّلذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ يَّنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَّعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾[69]

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[70] فعلمنا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[71] واقع على من مات كافرا، وقال في المؤمنين المذنبين: ﴿وَمَن يَّعْمَلْ سُوٓءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿١١٠﴾﴾[72]

وقال :﴿وَالذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَّغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[73]

وقال: ﴿وَالذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٧٠﴾﴾[74]

فعلمنا أن قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾[75] لمن مات على غير توبة، إذ التائب من الكفر والذنب قد محصت التوبة عنهما ما احتقباه فحصلت الآية لغيرهما.

---

69 – الأنفال: 38

70 – المائدة: 75-76

71 – النساء: 47

72 – النساء: 109

73 – آل عمران: 135-136

74 – الفرقان: 68-69-70

75 – النساء: 47

وأما الرد على الشراة في باب الذنوب، فإنهم يعدون صغيرها وكبيرها كفرا فإذا كان الكفر كفرا والذنب كفرا، فما الشيء الذي يغفره الله بعد الشرك لمن يشاء[76]

في هذه الآيات أعمل القصاب السياق القرآني ليرد على الشراة، الذين لا يفرقون بين الكفر والذنب، وأشار إلى أن القرآن يشتمل على ما يدل على عكس ما ذهبوا إليه، واستدل على ذلك بآيات متفرقات واردة في عدة سور من القرآن الكريم، تبين أن التوبة تقبل من المذنب كما تقبل من الكافر، وأن مغفرته تشمل من مات على غير توبة، ويستثنى منها المشرك.

سياق السورة:

السورة في القرآن هي مجموع آيات لها بداية ونهاية ويوجد في القرآن 114سورة، ومما جاء في تعريفها قول الجوهري:"السورُ أيضاً :جمع سورة وهي كل منزلة من البِناء. ومنه سورَةُ القرآن، لأنَّها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعةٍ عن الأخرى. والجمع سُوَرٌ بفتح الواو"[77] وقال محمد بكر إسماعيل: السورة في اللغة إما أن تكون مشتقة من سور المدينة، شبهت به لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور. أو من التسوّر، بمعنى التصاعد والتركيب، لعلوّ شأنها وشأن قارئها.

وهي في الاصطلاح :طائفة من الآيات القرآنية لها بدء ونهاية."[78]

تشكل السورة في القرآن وحدة متماسكة، وتدور في فلك واحد، مشدودة إليه خيوطها جميعا، قال محمد عبد الله دراز: "يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًّا[79]

وفي مثل هذا قال القصاب: – والله أعلم –: إن في قول :الحمد لله إضمار قل :كأنه – إن شاء الله – قال: قل :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رب الْعَالَمِينَ ۝١ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٣ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ [80] ليكون الكلام منسقا [81]

ذهب القصاب في تفسير سورة الفاتحة إلى القول بوجود مضمر هو فعل الأمر " قل"، ثم أورد آيات السورة وقال:" ليكون الكلام منسقا"، بمعنى أن سياق السورة قد يقتضي وجود مضمر.

ثم أورد تفسير سورة القارعة فقال: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣﴾[82]

هي القيامة يعظم أمرها وهي وعيد إلى آخرها، والناس في غفلة عنها"[83]. فأشار إلى كونها تتحدث عن القيامة وعظم أمرها وأنها سورة سياقها هو الوعيد.

---

[76] – نكت القرآن ج1ص273

[77] – الصحاح ج2 ص690: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ)
تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987 م عدد الأجزاء: 6

[78] – دراسات في علوم القرآن ص56 المؤلف: محمد بكر إسماعيل (ت 1426هـ) الناشر: دار المنار الطبعة: الثانية 1419هـ-1999م
عدد الصفحات: 375 ترقيم الكتاب موافق للمطبوع.

[79] النبأ العظيم ص 188

[80] – الفاتحة الآيات من 1إلى 4

[81] – نكت القرآن ج1ص 83

[82] – القارعة: 1-2

[83] – نكت القرآن ج4ص536

سياق المقطع:

يقصد به النظر في جزء من السورة مما له سياق خاص به، مترابطة معاني الآيات الواردة فيه، وقد سماه القصاب "فصلا"، قال: فكرهنا إعادته في هذا الفصل لطوله"[84]

ومن أمثلة ما ورد فيه عنه قوله: " وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٨﴾ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[85]

دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن نصرة الله لا محالة نصرة دينه. إذ هو جل وتعالى قوي عزيز كما قال. لا يرام فإنما الواجب على أهل دينه نصرة دينه الذي شرعه لهم، ولا وصول إليه إلا بإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[86] تفسير من ينصره، والله أعلم، وكان بعض أهل التمييز يزعم أنهما مفروضان على السلاطين دون الرعية ويحتج بقول: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[87] وهو عندي إغفال، إذ لو كان كذلك لكان – والله أعلم – أقاموا الصلاة وأخذوا الزكاة كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[88] ولكانت الصلاة والزكاة أيضا غير مفروضتين إلا على السلاطين دون الرعية، لأن الله جل وتعالى وصف الممكنين في الأرض بالأربعة الأوصاف وصفا واحدا. وهذا خروج من الإسلام" [89]

استدل القصاب على تفسيره لهذه الآيات بمعنى يجمع هذه الآيات هو أن نصر الله هو نصر دينه، وأن هذا النصر يستوجب أربعة أوصاف ينبغي توفرها فيمن سيتولى ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

ومن أمثلته أيضا قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[90] حجة في إيجاب نفقة صغار الأولاد. وليس هو عندي كذلك، إذ الرزق والكسوة واجب لهن بالزوجية قبل ولادتهن، وقبل حاجة الزوج إلى من ترضع أولاده منهن، فلا وجه لاعتبار نفقة الصغار بهذا، ولو كان متخوفا من هذا الموضع، ما كان على الأزواج نفقة الزوجات قبل أن يلدن، وهذا لا يقوله بشر، ولا أعلم أحدا جعل للزوجة أجرة على الرضاع مضافة إلى نفقة الزوجية ولا ذكرها الله إلا للوالدات المطلقات إذا أرضعن بعد الطلاق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[91] فلم يذكر أجرة، ثم قال في سياق

---

[84] – نكت القرآن ج1ص405

[85] – الحج: 38-39

[86] – الحج: 41

[87] – نفس السورة والآية

[88] – التوبة: 104

[89] – نكت القرآن ج2ص330

[90] – البقرة: 231

[91] – نفس السورة والآية

الكلام: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ﴾[92]

استند القصاب في هذا المقطع إلى السياق الذي وردت فيه هذه الآيات، لينتقد قول من ادعى أن المقصود بالنفقة هنا النفقة الواجبة حال الزواج، وليقول إنها "أجرة الوالدات المطلقات إذا أرضعن بعد الطلاق"

سياق الآية:

ويكون بالنظر في الآية المراد تفسيرها حين تكون بنفسها تفيد معنى أو معاني، مما يجعل المفسر يقتصر على تفسيرها مفردة، وقد مثل لذلك قول القصاب:" وقد حرم – مع ذلك – أذى المؤمن جملة وقد وُعد عليه الإثم

المبين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[93] ، ...فكل أذى يلحق المذنب المعلن بذنوبه غير إقامة الحد فيما يوجب عليه ما اكتسبه – والتغبير عليه ساعة يطهره من ذكر عرض، وغيبة، وتنديد – فمدخل عندي مؤذية فيما أخبر الله جل وتعالى عنه في آية المؤمنين، والمؤمنات بنص القرآن."[94]

استنبط القصاب من هذه الآية أن المذنب المعلن بذنوبه لا يصبح عرضة للغيبة ولا التنديد، بل يكفي أن يقام عليه الحد إذا استوجبه.

وقال:" قوله :﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[95]،خصوص لا محالة لخلو آدم منها، وعيسى – عليهما السلام – منها. وفيه حث على استشعار التذلل والتواضع، إذ مَن كان خلقه من نطفة ضعيفة فإعداده نفسه في عداد الخصماء جهل به، وإغفال لمراعاة ما خلق منه. وفيه دليل على أن التكبر متولد في الإنسان من قلة معرفته بنفسه. وفكره فيما خلق منه[96].

وقوله – تعالى:﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٣﴾﴾[97]، حجة على المعتزلة والقدرية في الإخبار بالإضلال عن نفسه لهم، ونفى السبيل بذلك عنهم، وأمرهم على إثر ذلك بالاستجابة، فهل ذلك – ويحهم– إلا نص قولنا، وضد قولهم، ومعرفة كيفيته عنا مغيب، وهو عدل لا ريب فيه، وإن جهلناه[98].

تلك كانت بعض الأمثلة اقتنصتها من درر ما ورد في كتاب القصاب، فيما يخص أقسام السياق الأربعة، التي يوجد الكثير منها في تفسير نكت القرآن، لكني اقتصرت فيه على تلك الأمثلة تجنبا للإطالة، وعملا بقول من قال: "يكفي من السوار ما أحاط بالمعصم"

---

92 – البقرة: 231

93 – الأحزاب آية 58

94 نكت القرآن ج4ص180-181

95 – النحل: 4

96 نكت القرآن ج2ص46

97 – الشورى: 43

98 – نكت القرآن ج4ص120

4. أثر السياق في نكت القرآن:

لقد كان توظيف القصاب للسياق في العملية التفسيرية جليا، ومبرزا جانبا من جوانب إتقانه لهذه الصنعة، وتمكنه من فهم وتدبر آيات الله عز وجل، ذلك أنه أفاد منه في عدة علوم، وجعله قرينة لما ذهب إليه من ترجيحات واختيارات فقهية أو لغوية، وتفسيرات عقدية واستنباطات أصولية إلى غير ذلك مما بدا أثره في ثنايا كتاب النكت الدالة على البيان، وهذا ما سأعرضه فيما يلي:

أ-أثره في الترجيح بين المشترك اللغوي:

الاشتراك اللغوي مبحث مهم من مباحث اللغة العربية، وثيق الصلة بالسياق، وقد اعتنى به اللغويون والأصوليون، والمفسرون الأوائل أيما عناية، وذكر في كتبهم بمعناه لا بلفظه في مواضع كثيرة، منها ما أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن قال: فالظن على وجهين :يقين وشك "[99]، أي إن المشترك هو ما يحتمل وجهين.

وفي نفس المعنى قال القصاب: وفي قوله: (وقبيله) دليل على أن الاسم الواحد واقع على معاني شتي، إذ القبيل في هذا الموضع – والله أعلم – أشياعه وأعوانه. وقال في موضع آخر: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾[100]، أي عيانا إن شاء الله"[101]

في هذا الموضع أشار القصاب إلى معنى الاشتراك اللغوي بقوله " الاسم الواحد واقع على معاني شتى"، وقد ورد عنه هذا التعبير في مواضع عدة، ثم قال في موضع آخر: في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[102]

دليل على أن الظن من الأضداد :يكون بمعنى اليقين والشك، وهو هاهنا يقين، لأنه مدح للخاشعين."[103]

استنبط من كلام القصاب في المواضع السابق ذكرها، معنى المشترك اللغوي وأنه قسمان:

-اسم واحد واقع على معاني شتى.

- اسم واحد واقع على معنيين متناقضين.

ومثال الأول قوله: وقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[104]

---

[99] – مجاز القرآن ج1ص40 المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت 209هـ) المحقق: محمد فواد سزگين الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة الطبعة: 1381 هـ

[100] – الاسراء: 92

[101] نكت القرآن ج1ص 409

[102] – البقرة: 45

[103] – نكت القرآن ج1ص117

[104] – ال عمران: 55

دليل على أن الجعل لا يكون بمعنى الخلق في كل موضع، كما تزعم الجهمية أن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[105] هو بمعنى خلقناه. وقد غلطوا، إنما هو بمعنى صيرناه.. وللجعل مواضع يدل عليه سياق الكلام، فإذا اقتضى الخلق فهو خلق، وإذا اقتضى صيرورة فهو صيرورة."[106]

ومثال الثاني قوله: دليل على أن الظن من الأضداد :يكون بمعنى اليقين والشك، وهو هاهنا يقين لأنه مدح للخاشعين، فرجح معنى اليقين على معنى الشك وذلك لأنه ورد في سياق مدح الخاشعين.

يتبين مما سبق إعمال القصاب للسياق لبيان المعنى المراد من المشترك اللغوي، وللترجيح بين معانيه المحتملة.

ب–أثره في الترجيح الفقهي:

الترجيح الفقهي هو تقوية أحد الوجهين أو الوجوه المحتمل معناها في الأحكام الفقهية، وهو باب عظيم من أبواب الاجتهاد، والبحث في الخلاف العالي الذي يعد من دلائل سعة الشريعة الإسلامية، واستيعابها لكل ما هو داخل في صلاح الإنسان. وقد عرفه ابن العربي بقوله:" الترجيح في اللغة عبارة عن وفاء أحد المتقابلين من أي معنى كانا، وبأي وجه توازنا، وذلك في الشريعة عبارة عن وفاء أحد الظنين على الآخر وهو على قسمين: رجحان الألفاظ ورجحان المعاني" [107]

وقد أشار إليه القصاب في تفسيره بقوله في أكثر من موضع: "فليس الأمر عندي كذلك"[108]كما عبر عنه بقوله:" والذي يزيل الريب كله[109]". وعبر عن معنى الرجحان بقوله: يزيل الريب كله"

وقد مثلت للترجيح الفقهي في نكت القرآن بما ورد في تفسير "الذي بيده عقدة النكاح فقال:" – تفسير قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[110]

قال القصاب: دليل على أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج، لأن لكل واحد منهم فضلا على صاحبه حثه الله على ترك نسيانه، منهن بالتجافي عن النصف ومنهم بإكماله، ومن قال: هو الولي كان الفضل من جانب واحد في العفو من قبل المرأة كان أو من عند وليها، وكان ابن عيينة يحدث عن ابن شبرمة قال :كلمت أبا الزناد في ذلك، فقال :هو الولي وقلت أنا: هو الزوج أرأيت إذ كان وليها هو الذي تزوج بها فطلقها قبل أن يدخل بها فأبت أن تعفو أله أن يعفو عن نفسه، فسكت. وهذه لطيفة حسنة من قول ابن شبرمة وكان قوله على تأويل ما قلناه"[111].

---

[105] – الزخرف: 3

[106] – نكت القرآن ج1ص215

[107] – المحصول في أصول الفقه ص 149 المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت 543هـ)
المحقق: حسين علي اليدري – سعيد فودة الناشر: دار البيارق – عمان الطبعة: الأولى، 1420هـ – 1999

[108] – نكت القرآن ج1ص 264

[109] – نكت القرآن ج1ص269

[110] – البقرة: 235

[111] نكت القرآن ج1ص73

اختلف الفقهاء في تفسيرهم للذي بيده عقدة النكاح، فمنهم من قال هو الزوج ومنهم من قال هو الولي، ورجح القصاب قول من قال إن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، وأكد وجهة نظره بالآية التي بعدها قال:" قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[112]

مخاطبة للأزواج في الإتمام، فيكون العفو في هذا الموضع بمعنى الزيادة والنماء.. والذي يزيل كل لبسة أنه الزوج قوله: أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح (ولو كان الطلب لكان الذي بيده عقدة الإنكاح والله أعلم"[113].

اشار القصاب في تفسيره لهذه الآيات إلى خلاف فقهي في المقصود ب" من بيده عقدة النكاح"، ووظف السياق ليرجح أنه الزوج، حيث أورد الكلام الذي جاء بعده فجاء بقول الله تعالى" أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح" وبقوله" وأن تعفوا أقرب للتقوى".

ج–أثره في القول بالنسخ:

النسخ مبحث من مباحث علوم القرآن، وعلم أصول الفقه، عرفه القصاب بقوله:" فأما إزالة الشيء وإبطال حكمه فهو النسخ بعينه."[114]

ومن أمثلة ما ورد فيه عنده قوله:

"وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[115]دليل على أن ذوي الأرحام أولى بالميراث من المؤمنين والمهاجرين على ما فرض في آي المواريث، وهم أولوا الأرحام المسمون في سورة النساء لا من لم يسم منهم.... وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾[116] فأبدل سياق الآية، على أن الاستثناء في فعل المعروف واقع على من كان وليا للميت من المؤمنين والمهاجرين، ويكون المعروف وصية يوصى له حيث نسخ الميراث عنه إلى ذي الرحم"[117]

في تفسير هذه الآيات، ذهب القصاب إلى أن ذوي الأرحام أولى بالميراث من المؤمنين والمهاجرين، واستدل على ذلك بقوله" فأبدل سياق الآية" ليشير إلى أن فعل المعروف مقصود به الوصية، لمن كان وليا للميت لأن آيات ميراث ذوي الرحم نسخت ميراث غيرهم.

د–أثره في العقيدة:

يعتبر السياق دليلا مهما من الأدلة التي يعتمد عليها في مباحث العقيدة، وقد أعمله القصاب في غير ما آية، ومن ذلك قوله: "تعريف الايمان:

قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[118] حجة على المرجئة، إذ ليس يخلو قولهم في تجريد الإيمان بالقول من أن يكون محسوبا لهم بلا مشاركة القلوب له، أولا يسمى القول بالشهادة إيمانا حتى يشاركه الضمير وتصدقه القلوب، فإن كان القول خاليا من الضمير هو :الإيمان

---

112 – البقرة: 235

113 – النكت ج1ص73

114 – نكت القرآن ج1ص157

115 – الأحزاب: 6

116 – نفس السورة ونفس الآية

117 – نكت القرآن 3ص645-644

118 – المائدة: 43

عندهم فقد كذبكم الله – جل وتعالى – نصا بقوله: ﴿وَلَمْ تُومِن قُلُوبُهُمْ﴾ وسماهم مسارعين في الكفر إذا اقتصروا على القول دون القلوب"[119].

في تفسير القصاب لهذه الآية عرف الإيمان بأنه قول باللسان وتصديق بالقلوب، واعتمد هذا التعريف انطلاقا من ترابط كلمات ومعاني الآية وتساوقها.

أثره في أصول الفقه:

أصول الفقه علم جليل من العلوم الإسلامية، عرفه الإمام الباجي(ت474) بقوله:" ما انبنت عليه معرفة الأحكام الشرعية."[120]

وقد أعمل القصاب السياق في استنباط بعض تلك الأصول ومن ذلك قوله:" قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾[121] [سورة الشورى آية 8] دليل على أن الحق – إن شاء الله – إذا اختلف المختلفون في شيء لم يكن إلا في واحد، ولولا ذلك لأقره، ولم يجعل حكمه إليه، وفيما جعل حكمه دليل على أن حكم غيره محرم القول به، ومسكوت عنه، حتى يعرف ما حكم فيه فيتبع. وحكمه على ثلاثة وجوه:

فمنها :ما أنزل فيه نص كتاب.

ومنها :ما بينه على لسان الرسول، صلى الله عليه وسلم

ومنها :ما ألف عليه قلوب الجماعة، فأيها عرف في المختلف فيه–

من هذه الثلاثة – فهو الحق"[122].

ذهب القصاب في تفسيره لهذه الآية إلى أن الحق عند الاختلاف لا يكون إلا واحدا وأنه يبنى على أحد ثلاثة أصول: القرآن والسنة والإجماع. فأيها عرف الحق به فهو حكم متبع.

تلك كانت لمحات واستنباطات في درر ما جاء في كتاب نكت القرآن، استفيد منها اهتمام القصاب بالسياق باعتباره قرينة، تساعد في تفسير كلام الله جل وعلا، وضابطا من الضوابط المفروض على المفسر الاهتمام بها، لئلا ينحرف بالآية عن المعنى المراد.

---

[119] – نكت القرآن ج 1ص302

[120] – الحدود في الأصول ص 102(مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه) المؤلف: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي الذهبي المالكي (ت 474 هـ) المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م

[121] – الشورى: 8

[122] – نكت القرآن ج4ص 88-89

خاتمة:

لقد كانت هذه المصاحبة لكتاب نكت القرآن عبارة عن مجالس قرآنية، في رحاب مجاهد كبير، وعالم جليل وقف وقته على تدبر كلام الله جلت قدرته، وجاد عليه المولى تعالى بفتوحات ربانية منها على سبيل المثال ما تم استنتاجه من تفسيره من مسائل متعلقة بالسياق، ويمكن إجمالها فيما **يلي**:

- **عناية القصاب بالسياق وإيراده له ولمرادفاته في تفسيره لكتاب الله تعالى.**
- **ضرورة معرفة المفسر للسياق، ولما يتميز به اللسان العربي من مميزات باعتبارهما ضوابط قد تجعل من يجهلها ينحرف بالآية عن المعنى المراد..**
- **حجية السياق في التفسير.**
- **أهمية السياق في توجيه وتقويم التفسير.**
- **أهمية السياق في حماية التفسير من الأهواء والضلالات.**
- **أقسام السياق باعتبار ترابط معانيه وألفاظه أربعة: سياق القرآن، وسياق السورة، سياق المقطع، وسياق الآية.**
- **إعمال السياق في التفسير، والترجيح، والنقد**
- **مباحث السياق مؤصلة في تراث الأمة العلمي، ومستفادة من كتب التفسير واللغة العربية وكتب أصول الفقه.**
- **كل ذلك أظهر أهمية السياق، وموسوعية كتاب نكت القرآن والتزام صاحبه بما أعلن عنه في مقدمة كتابه من كونه " نكتا دالة على البيان في مختلف العلوم والأحكام".**

المصادر والمراجع:

- القرءان الكريم برواية ورش عن نافع.
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت 643 هـ) دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، 1420 هـ - 2000 م عدد الأجزاء: 13.
- أسرار البلاغة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت 471هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الطبعة: الأولى، 1426هـ عدد الأجزاء: 10
- الحدود في الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه) المؤلف: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي الذهبي المالكي (ت 474 هـ) المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م
- -الخصائص المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب :الطبعة: الرابعة عدد الأجزاء 3.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (224 - 310هـ) توزيع: دار التربية والتراث - مكة المكرمة - ص.ب: 7780 الطبعة: بدون تاريخ نشر عدد الأجزاء: 24
- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم المؤلف عبد الوهاب رشيد أبو صفية الناشر دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الأولى2012
- دراسات في علوم القرآن المؤلف: محمد بكر إسماعيل (ت 1426هـ) الناشر: دار المنار الطبعة: الثانية 1419هـ-1999م
- الرسالة المؤلف: محمد بن إدريس الشافعي (150 هـ - 204 هـ) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر عن أصل بخط الربيع بن سليمان كتبه في حياة الشافعي (الطبعة: الأولى، 1357 هـ - 1938 م الناشر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر.
- الزهد المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ) وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م عدد الأجزاء: 1.
- الصحاح ا: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م عدد الأجزاء: 6.
- المحصول في أصول الفقه المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت 543هـ) المحقق: حسين علي اليدري - سعيد فودة الناشر: دار البيارق – عمان الطبعة: الأولى، 1420هـ - 1999.
- مجاز القرآن المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت 209هـ) المحقق: محمد فواد سزگين الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة الطبعة: 1381 هـ.

- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها) المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م.
- معجم مقاييس اللغة المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت395هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م. عدد الأجزاء: 6.
- الموافقات المؤلف: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790 هـ) المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م عدد الأجزاء: 7.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (ت 1377هـ) الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ- 2005م.
- نزهة الالباب في الألقاب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) المحقق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري الناشر: مكتبة الرشد - الرياض الطبعة: الأولى، 1409هـ-1989م عدد الأجزاء: 2.
- نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام المؤلف: أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (ت نحو 360هـ) تحقيق: الجزء 1: علي بن غازي التويجري الجزء 2 - 3: إبراهيم بن منصور الجنيدل الجزء 4: شايع بن عبده بن شايع الأسمري) دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان الطبعة: الأولى 1424 هـ - 2003 م (عدد الأجزاء: 4)